فنيّة أَهَاجِي المُدن والأقاليم في الشّعر المَغربيّ القديم

Artistics of Satiric poems on cities and provinces in the ancient Maghreban poetry

د. نور الدّين سعيداني♦

تاريخ الاستلام:14-05-2020 تاريخ القبـول:27-01-2021

ملخّص: المَدينة عمرانٌ ماديّ ينطوي على مكوناتٍ ثقافيّة واجتماعيّة وفنيّة وحضورُها في الشّعر المغربيّ القديم ظاهرة لافتة للنّظر تجسّد تفاعلاتٍ عرفتها بيئة المغرب، وتفصح عن علاقة الشّاعر بالمدينة وموقفه منها. وعلى كثرة ما ألّف المغاربةُ في مفاخر مُدنهم؛ فإنّهم كتبوا أهاجيَ فيها معبّرين عن تجارب شخصيّة مؤرّخين لذواتهم في علاقاتها المتشابكة بالمكان، وغايةُ هذا البحث تقتصر على تقصّي الأشعار التي قيلت في هجاء المدن والأقاليم، مع الوقوف على بواعث هذا اللّون من الشّعر ومضامينه وسماته الفنّية.

الكلمات المفتاحيّة: الشّعر المغربيّ-الهجاء-المدينة-السّمات الفنّية.

Abstract : The city is a physical architecture that includes cultural, social and artistic components, and its presence in the ancient poetry of the Maghreb is a remarkable phenomenon that embodies the interactions that were known to the environment of Maghreb, and Explains the relationship of the poet and the city and its position on it. In spite of the frequent authorship of the Maghrebans in praising their cities, they wrote a satire, expressing personal experiences, chronicling themselves in their intertwined relations with the place, and the purpose of this research is limited to investigating the poems that were said in

♦جامعة محمد الصديق بن يحيى جيجل، الجزائر، البريد الإلكتروني:
nouredine.saidani@univ-jijel.dz (المؤلّف المرسل).

the spelling of cities and provinces, while examining the motives of this type of poetry and its contents and artistic characteristics

Keywords: poetry in the Maghreb- Satire- The city- artistic characteristics.

1. المقدّمة: درج النقّاد على تقسيم الهجاء إلى ثلاثة موضوعات، هي: الهجاء السياسيّ والهجاء الاجتماعيّ والهجاء الشخصيّ، يزيدون فيه تبعا لتغيّر الدّواعي الدّافعة إليه، وتطوّر الذّوق العامّ من عصر إلى عصرٍ؛ فالشّعراء، كما يقول الجاحظ، يهجون كلّ شيء، ويقولون في كلّ شيء؛ فلا يفلت منهم إنسان، ولا سبع، ولا بهيمة ولا طائر، ولا رفيع من النّاس، ولا وضيع[1]. بل إنّ هجاءهم انصرف إلى ذمّ المدن والأقاليم، وهو لون يعود إلى القرن الأوّل الهجريّ، ولكنّه اتّسع في القرن الثّاني اتّساعا ملحوظا، ومن أمثلة ذلك هجاء أبي نواس للبصرة، وابن أبي الزّوائد لبغداد[2]. ومن يُرجِع بصره في نُجود الشّعر المغربيّ يجد أنّ شعراء هذا القطر لم يكونوا بِدْعا من المشارقة في هجائهم للمدن، على كثرة ما ألّفوه في مفاخر مدنهم. غير أنّ الهجاء لا يعني دائما التّجنّي والإقذاع والفحش، بل قد يمثّل روح النّقد والمعارضة لكثير من سلبيات الأفراد والمجتمعات، وأوجه القصور فيها، وقد يكون المقصود منه الوقوف عند مُلَحه ومعانيه، وهو ليس دليلا على إساءة المهجوّ، ولا صدق الهاجي؛ فما كلّ مذموم بذميم[3]. وما دام الهجاء مرتبطا بواقع الحياة، فإنّه أقدر على أن يضيف ويكمّل بعض ما في هذا الواقع من الفجوات، من خلال نقده للأفراد والمجتمعات والمدن[4]. فما هي بواعث هجاء المدن والأقاليم وما هي أهم مضامينه وسماته الفنيّة؟

2. بواعث هجاء المدن والأقاليم في الشّعر المغربيّ القديم: إنّ حضور المدينة في الشّعر المغربيّ القديم ظاهرة لافتة للنّظر، تجسّد تفاعلات عرفتها بيئة المغرب، وتفصح عن علاقة الشّاعر بالمدينة وموقفه منها. وقد يدعو إلى هذا الهجاء "أشياء منها الفقر، والحرمان، ومركّبات النّقص، وعواطف الاستعلاء والاحتقار والزّراية أو الهزء والسّخرية، وربّما دفع إليه استبطاء الوعد، بل ربّما أوقدت ناره كراهية النّاس جميعا"[5]. وَللتّطوّر الذي يشمل المدن وعلاقات الشّاعر مع سكّانها وحكّامها الأثر العميق في نفسيّة الشّعراء سلبا وإيجابا؛ فإن احْلَولَى جوارُ سكّانها أنِس الشّعراء بها، وراحوا يدبّجون فيها الأماديح، وإن نَبَتْ بهم منازلُها، وتعذّر قضاء الوطر، أعْمَلوا فيها لواذع ألسنتهم، ودبيب قوارضِهم. وقديما قيل:

حياةُ المَنازلِ سكَّانُها فهُمْ روحُها، وهي جُثمانُها

ومن ثَمَّ، فهجاء المدن يستتبع هجاء أهلها، فيكون نفثة مصدور، لذلك يمكن أن يكون هجاء مدينة ما، بسبب موقف شخصي، صادرا عن تجربة مع شخص أو جماعة معينة. لقد شعَر المغاربة بالغربة في المدن التي هاجروا إليها، فاستبدّ بهم الحنين إلى بلدانهم، وراحوا يتمثّلونها كأنّها جنّة الخلد، ويهجون المدن الأخرى؛ إذ لم يعرف المغاربة نعمة الاستقرار في فترات معيّنة بسبب اضطراب الأوضاع السّياسية، وكثيرا ما غذّتْ عاطفة الحنين إلى مسقط الرأس هجاءهم؛ فالشّاعر يهجو مدينة معينة ليتوصّل إلى مدح عشِّه الّذي منه درج، ومن ذلك قول المقّري صاحب النفح (ت.1041هـ) يذكر تلك اللّمعة من عُمره في تلمسان حيث الأنس منتضد:[6] [الوافر]

تركتُ رُسومَ عزِّي في بلادي وصِرت بمصرَ منسيَّ الرُّسومِ

ورُضتُ النَّفسَ بالتَّجريد زهداً وقلتُ لهَا: عنِ العَلياء صُومي

كما يكون هجاء المدينة بسبب عدم الحصول على النّوال المأمول منها أو من أهلها أو من حاكمها، أو خيبة المساعي في الحصول على الحظوة العلميّة والمكانة الأدبيّة. فمن ذلك قول الحسن اليوسي (ت.1102هـ):[7][الكامل].

ما أنصفتْ فاسٌ ولا أعلامُها عِلمِي، ولا عرفوا جلالةَ منصبي

لو أنصفُوا لصَبَوا إليَّ كما صَبا راعي سنينَ إلى الغمَام الصَّيبِ

قد يكون بسب مناخ المدينة غير الملائم للشّاعر، أو ذمَ طبائع أهلها وما غلب عليهم من صفات، يدلّ على هذا ما وصل إلينا من أدب الرّحلة المغربيّة سواء الرّحلة الدّينية أم السّياحية أم العلميّة أم السياسيّة ودورها في تدوين أخبار البلاد والعباد والوقوف على مثالب المدن ومناقبها، وهذا اللّون من الأدب متأصل في تراث المغاربة فخذ مثلا قول العبدري في رحلته :"...ثم وصلنا مدينة اطرابلس وهي للجهل مأتم وما للعلم بها عرس، أقفرت ظاهرا وباطنا، وذمّها الخبير بها سائرا وقاطنا...استوى عليها من عربان البرّ ونصارى البحر النّفاق والكفر، وتفرّقت عنهم الفضائل تفرُّق الحجيج يوم النّفر.

... كأنّهم من ضيقِ أفهامهم لم يخرجُوا بعدُ إلى العَالم"[8]

3. مضامين هجاء المدن والأقاليم: نظر الهجّاؤون إلى المدن بعين المغضب الحنِق، وراحوا يمزّقون أديمها كل ممزّق فكان هجاؤهم تعميميا ينمّ عن قلق وعدم

ارتياح للأوضاع بهذه المدن. ومن ذلك قول أبي عبد الله محمّد بن أحمد المقّري يذمّ مناخ بسكرة: [الطويل]

دخلتُ بلادَ الله شرقًا ومغْرِبا فلم ترَ عيني مثْلَ بسْكرةٍ يُبسا

وزاد عيه السّلطان المريني أبو عنان(ت.759هـ.): [الطويل]

ويا قُبْح ما اسْودّ القَتامُ بوجهِهـا فمذ غشيَ الأبصار لم تبصِر الشّمسا

فخُسْرًا وسحْقا لابن هانٍ لقد غوى بمدحِ بلادِ الزّاب إذ عَدِم الحسّـــــا

مشيرا إلى شعر ابن هانئ الأندلسيّ: [الطويل]

خليليّ أين الزّاب منّي وجعفرُ وجنّةُ عدن بِنْتُ عنها وكوثرُ[9]

فالمقّري وأبو عنان ناقمان على مناخ بسكرة، وعلى تجهّم آفاقها بالغبار الذي يحجب الشّمس، فتغدو أطْرَفَ من شمس بكر بن حماد(ت.296هـ) :[10] [السريع]

ما أخشنَ البَرد ورَيْعانَهُ وأطرف الشّمسَ بتاهرت

تبدُو من الغيم إذ ما بدَتْ كأنّها تُنشر من تخْتِ

إلى قوله:

نفرَحُ بالشّمس إذا ما بدتْ كفرحةِ الذِّمّي بالسّبت

هكذا عكف بعض الشّعراء على إبداء الصّفحة السّلبية لكل مدينة من خلال هجاء لا يزال ميسمه باقيا ما بقي الدّهر، ممعنين التّحديق في نقائص المدن ومثالبها متعامين عن فضائلها ومناقبها، ومن ذلك قول شاعر آخر:[11] [الرمل]

أيّها السّائلُ عن أرضِ تنَسْ مَقعدِ اللّؤم المُصفّى والدّنسْ

بلْـدةٌ لا ينزِل القطْرُ بها للنّدى في أهلها عِرقٌ درَسْ

فُصَحاءُ النُّطق في لا أبـدًا وهُمُ في نَـعَمٍ بُكْمٌ خُـرسْ

فمَتى يلمِـمْ بـها جاهِلُها يرتحلْ عن أرضِـها قبل الغلسْ

ماؤها مِن قُبـح ما خُصّـتْ به نَجِسٌ يجري على تُرْبٍ نجـسْ

فمتى تَلـعنْ بـلادًا مَرّةً فاجعلِ اللّعنةَ دأْبًا لتنَسْ

فالشّاعر، كما يبدو، متبرّم من سكنى تنَسٍ، ناقم على أهلها؛ لأنّهم يمنعون ذا الحاجة بل إنّه يذمّ ماءها وترابها، متّخذا هذا الهجاء مطيّة لشفاء حزازات صدره، لأنّ هجاء المدن كثيرا ما يستتبع هجاء أهلها.

وشبيهٌ بهذا قصيدة لسعد بن واشكل التّيهرتيّ، في علّته التي مات بها في تنس يهجو تنس فتُغذّي هذا الهجاءَ عاطفةُ الحنين إلى مسقط الرأس؛ تيهرت عشّه الّذي منه درج:[12] [الطويل]

نَأَى النَّوْمُ عَنِّي واضْمَحَلَّتْ عُرَى وَأَصْبَحْتُ عَنْ دَارِ الأَحِبَّةِ فِي أَسْرِ
وَأَصْبَحْتُ عَنْ تِيهِرْتَ فِي دَارِ غُرْبَةٍ وَأَسْلَمَنِي مُرُّ القَضَاءِ منَ القَدرِ
إِلَى تَنَسٍ دار النّحُوسِ فَإِنَّهَا يُسَاقُ إِلَيْهَا كُلُّ مُنْتَقَصِ العُمْرِ
بلادٌ بها البرغوثُ يحمِلُ راجِلًا ويأوي إليها الذئب في زمن الحر
ترَى أهلَهَا صَرْعَى دَوى أمّ ملدمٍ يرُوحُونَ في سُكْرٍ ويغدونَ في سُكْرِ

لقد استخفّه الحنين إلى بلده مدارِ الاطمئنان والأمن، فلم يعد يرى في تَنَس ما يبهج النّفس؛ إذ هي في عينه بلاد موبوءة ودارُ نحس وحشرات. ومهمّة الهجّاء أن ينقل لنا الحياة الواقعيّة بغير تهذيب وبغير تدبّر، كقول ابن الخطيب الزّرويلي(ت.993هـ) يهجو مدينة مَرَّاكُش:[13] [البسيط]

ما كانَ ظنّي وحقِّ الله فرقتكُم لو أن مَرَّاكُشا كانت تُواتيني
أظلُّ في نصَبٍ ممّا أُكابد مِن نفْضِ الغبار ومن طرْد الذَّبابين
وطولَ ليلِي في كدٍّ وفي تعَبٍ ما بينَ بقٍّ وناموسٍ يُناغيني
أبيتُ أحرُس فرْشِي مِن عقارِبِها والقلب في فكر منها وتخمين
إذا رأيتُ سَوادًا مرَّ بي وأتَى ظننتُها عقْربًا دبَّت لتؤذِيني
لم يبقَ في الفمِ ضِرسٌ استعدّ به أفناه مضغ الحَصى مِن ذي
مُنُّوا عليَّ بإطلاقي بفضلكُمُ هذا العَجاج يكادُ يعمِيني
لم يبقَ في الكيسِ فلْسٌ أستعين أفنيتُ مالِيَ فِي غسلٍ وتصْبين

فهذا الهجاء يميل إلى الشّعبية في أسلوبه ومعانيه؛ ليقترب من نفوس الجماهير ممّا قد يكفل له الذّيوع؛ لأنّه يبعث على السّخرية المضحكة، والفكاهة الحلوة، تمثُّلا لنصيحة جرير:"إذا هجوتَ فأضحكْ"[14]، خاصّة حين يعرض الزّرويلي لمطاردة الذّباب، ومناغاة البقّ والنّاموس، وسهَرِه اللّيلَ لحراسة فراشه من العقارب، وفمه الأدرد من مضغ الحصى، ونقوده التي أنفقها في غسل لباسه من كدر الغبار. وشبيه بهذا هجاء أبي الحسن الحُصْري لبلنسية:[15] [المجتث]

ضاقتْ بَلنسية بي وذاد عنِّي غموضِي

رقصُ البَراغيثِ فيهَا على غِناءِ البَعوض

إنّ الغضّ من قيمة المدينة يعني الحطّ من منزلة أهلها والقدح في مروءتهم؛ فالشّعراء حين يهجون المدن إنّما يرمون من كنانتهم أهلها، ويصِمونهم بالشحّ والمضنّة والمعايب، التي تحمل معاني تراكميّة تكرّست في الهجاء، كالاتّهام باللّؤم وهوان الأصل، وصغر القدر، وانثلاب العرض، والقعود عن القتال[16]، واستباحة الحريم. وهذا ما يجسده الجراوي (ت.609هـ) يهجو قومه بني غفجوم بِتَادلة، متوصّلا إلى هجو فاس وأصلائها:[17] [الكامل]

يا بن السّبيل إذا مَررت بتَادَلا لا تنزلنَّ على بنى غفْجُوم
أرضٌ أغار بها العدوُّ فلنْ ترى إلاّ مجاوبةَ الصّدَى للبُوم
قومٌ طَوَوا ذكر السَّماحة بينهم لكنَّهم نشروا لواءَ اللُّوم
لا يملكُون إذا استُبيحَ حريمُهم إلاّ الصِّياح بدعوة المظلُوم
لا حظَّ فى أموالهم ونوالهم للسَّائل العافى ولا المَحروم
يا ليتني مِن غيرهِم ولو أنّني من أرض فاسٍ من بني الملْجوم

فهذه الأبيات من أكثر أنواع الشعر تعقيدا؛ لأنّ الجراوي يتطلَّبُ مثالب قومه ويَصِمُهم بكلّ خزي ومعرّة، وهو الّذي عَجم عودَهُم وخَبِر أخلاقهم. وهذا يحيلنا على انزواء التعصّب القبلي الذي كان يحضَأ نار الفتن والحروب قديما. وإنْ كان قدْ استعمل في هجائه المعاني التي دأب شعراء الجاهلية على ترديدها في الهجاء، وهي أضداد المديح ونفي الفضائل الأربع.

وكما كثر في مدينة فاس ثناء المادحين، كثر فيها إثخان الهجّائين من المغرب والأندلس. وقد اشتهر أبوبكر اليكّي بهجائها، وهو من وصفه صاحب المُسهِب بقوله: "هَذَا الرّجل هُوَ ابْن روميّ عصرنا، وحطيئة دَهْرنَا"[18]، فمن قوله: [البسيط]

يا أهلَ فاسِ لقد سَاءت فأصبحت فيكم الآراء مُتّفقَه
كل امرئ منكم حاز منقصةً بها أحَاط كدورِ العين بالحدقه
فلا تهابن فاسِيا مَررتَ به وإن تقلْ فيه خيرًا حوِّل الورقه

بل إنّه ليرميهم بكل شنيعة، من كذب، وسرقة، ولواط. وفي هجائه لهم فحش وسِباب وخلعٌ للعذار لا يجمل بنا ذكره.

كما ارتبط هجاء المدن بانهزام أهلها إبّان المعارك؛ فهاهو ابن مجبر(ت.588هـ) يخلّد انتصار المنصور أبي يوسف يعقوب على الميورقي في قفصة سنة 583هـ مازجا ذلك بالهجاء:[19] [البسيط]

ما غَرّ قَفْصةَ إلّا أنّها اجترمتْ فلم يكنْ عند أهلِ الحِلم تثْريبُ
تلك البَغِيّ التي خانتْ فحاقَ بها وبالزّناة بِها رَجْم وتغْريب

وإذا كان الشعراء قد رثوا المدن الأندلسية التي سقطت في يد الأعداء، فإنّ منهم من راح يهجوها، كأبي عبد الله بن عيّاش (ت. 618هـ) الذي سكن مَرَّاكش وقال في بلنسية بعد أن صارت ثغرا يُصاحبها العدو ويُماسيها:[20] [الطّويل]

بلنسية بِينِي عنِ القلب سُلوةً فإنّك روضٌ لا أحنُّ لِزهركِ
وكيف يحبُّ المرءُ دارًا تقسَّمتْ على صارمَيْ جوعٍ وفتنة

أمّا هجاء الأقاليم، فقد لجأ إليه شعراء المغرب معمّمِين، ناقمين على المجموع آخذين الرّفيعَ بالوضيع.من هؤلاء ابن المؤدّب عبد الله بن ابراهيم (ت. 414هـ) يقدح في أهل المغرب:[21] [الكامل]

ما كنتُ أدري النّحْس أين محلُّه في الأرضِ حتَّى زُرت أهلَ
يخشى نَعَمْ حتّى كَأنّ لسانهُ إنْ قالها تغشَاه لدغةُ عقربِ

ومحيي الدين المازوني الزّناتي في قوله :[22] [الكامل]

يا مُنكِرا مِن بخلِ أهلِ الثَّغر ما عَرف الورَى أنكرْتَ ما لم يُنكَر
إنْ كان قد صحَّت نتانةُ أهلِه منَ الثّغور كما علمتَ الأبخَرُ

إنّه هجاء تعميميّ، يفتقد في، غالب الأحيان، إلى عمق الأفكار، وينزع إلى مجرد الذّم المحض.

4. السّمات الفنّية: لجأ نفر من الشّعراء إلى التّجنيس وأسلوب التّلاعب اللفظي بأسماء المدن في معرِض هجائهم لها، ومن ذلك قول أبي عبد الله محمّد بن أبي تميم (ت684هـ):[23] [البسيط]

صفاقُسٌ لا صَفَا عيشٌ لساكِنها ولا سقَى أرضَها غيثٌ إذا انسكبا
ناهيك من بلدةٍ من حلَّ ساحتَها عَانى بـها العادِيَيْن الرُّومَ والعربَا
قد عاين البحْرُ قبحاً في جوانِبهَا فكلَّما همَّ أن يدنو لـهَا هَربا

وقول أحد الشعراء: [24] [الكامل]

لعَمركَ ما ألفيتُ تونس كاسمِها ولكنَّني ألفيتُها وهي تُوحِش

ويُروى لأحد الشّعراء في سُرْت: [25] [السّريع]

يا سُرتُ لا سُرَّت بكِ الأنفُس لسانُ مدحى فيكُمُ أخرسُ
ألبستُمُ القبحَ فلا منظرٌ يروقُ منكمْ لا ولا ملبسُ
بَخستُمُ في كلِّ أُكرُومة وفي الخَنا واللّؤم لم تبخسُوا

– من متفرق الأشعار التي وصلت إلينا نقف على أن جذوة العصبية القبلية قد خبت، ولم تعد تمدّ الهجاء بالحطب الجزل، فشعراء المغرب يبدون متعصبين لمدنهم وبلدانهم، حتى إن كتاب التراجم يركّزون على المدينة التي ينتمي إليها الشاعر، وغالبا ما يغفلون القبيلة التي ينتسب إليها؛

– لم تحفظ لنا مصادر الأدب المغربيّ الكثير من الهجاء الفاحش المتهتّك التّاركِ للتّصاون على الصّورة التّي هجا بها اليكّي الأندلسي وأحمد بن فتح قاضي تيهرت مدينة فاس وأهلها، مستعملَيْن ألفاظا نابية تمجُّها الأسماع، جعلت هجاءهما يفقد قيمته الفنية؛

– لا نكاد نجد عمقا أو إبعادا في الخيال؛ لذلك جاءت القصائد في أسلوب بسيط بعيد عن التكلف، يميل إلى الأسلوب الشّعبي، ومن ذلك قول لسان الدين بن الخطيب يهجو مدينة سلا ويتندّر بأهلها:[26][السريع].

أهلُ سَلَا صاحتْ بهم صَائحه غاديةٌ في دُورِهم رائحَه
يكفيهمُ مِن عَوَزٍ أنَّهم ريحانُهم ليستْ له رائحه

وهو كما نرى كلام بسيط ينزل إلى مستوى النّكتة، فغالبا ما يحول غموض الأسلوب وصعوبة الألفاظ دون بلوغ الغرض من الأهجية؛ لأن الهجاء لا يحتاج إلى رويَّة وإعمال فكر، يقول صاحب زهر الآداب:"إن أصحاب المطبوع أقدر على الهجو من أصحاب المصنوع لقرب شعرهم من يد المتناول"[27] لذلك مالت لغة الهجاء إلى البساطة، مما يجعل الشّعر أعلق بالذّهن؛

– اتّخذ الهجاؤون المقطوعة كشكل تعبيري مع التّركيز على معاني محددة فلا نجد طول النفس وشدة استقصاء المعنى والاسترسال فيه على طريقة ابن الرومي والهجاء القصير يحمل تجربة شعورية موحّدة الموضوع منسجمة تكفل له سرعة الذيوع

فقد" قيل للفرزدق: ما اختيارك للقصار، قال: لأنّي رأيتها أثبت في الصّدور وفي المحافل أجول"[28]؛

– غالبا ما يلجأ شعراء الهجاء إلى الأوزان القصيرة ذات الوقع الخفيف؛ لأنها توفر نغمات تأنس لها النّفس، غير أننا نجد أن الشّاعر المغربي قد استعمل الأوزان ذات المقاطع الطويلة والمقاطع القصيرة؛

– استوحى الشعراء صورهم من واقع حياتهم اليومية، فقد وقفنا – فيما تقدّم – عند صور مستمدة من عالم الحيوان والحشرات إمعانا منهم في النيل من المهجو، خذ –مثلا– قول بكر بن علي الصابوني(ت.49هـ) يهجو سوسة وأهلها:[29] [مجزوء الرمل].

كلُّ سوسيٍّ بسوسه نفسُه نفسٌ خَسيسه
بعضهم ينهشُ بعضًا ككلابٍ في فريسَه

لا تفاجئ الصور الشعريّة القارئ بجدَّتها وإثارتها، بل إنها صورٌ موروثة تراكمت في ذهن الشاعر المغربي من الشّعر القديم كالصور المستمدة من الحجارة الكريمة والدرّ التي دأب على ترديدها ابن المعتز وأبو تمام ومن ذلك – مثلا – قول عثمان بن عبد الله القيسي السّلالجي (ت.607) في أهل مدينة فاس:[30] [البسيط].

خُذوا ضماني ألا تفلحوا أبدا ولو شربتم مداد الكتب
أنتم صغارٌ كبارُ عند أنفسكم هل يستوي من يقيس الدُّر

– من الشّعراء من اتخذ الأسلوب القصصي أو أسلوب الحكاية وهي ظاهرة فنية ابتدعها جرير والفرزدق في الهجاء، وهذا أسلوب يجعل الهجاء سلس القياد عن طريق الحوار والسرد والتشويق، كقول الجراوي الذي حاول أن يجعل فاسًا أحدوثة في اللّؤم مستخدما الأسلوب القصصي:[31] [الطويل].

مشى اللّؤم فى الدّنيا طريداً يجُوبُ بلادَ اللهِ شرقاً ومغربَا
فلمّا أتى فَاساً تلقّاه أهْلُها وقالوا له: أهلا وسهلا ومرحبَا

وهذا المعنى متداول لدى الشعراء؛ فمنه ما أورده الجاحظ من مثل قول مكّي بن سوادة:[32] [البسيط]

تحيّر اللّؤم يبغي مَن يُحالفه حتَّى تَناهى إلى أبْناء

– جاءت مقطوعات الهجاء مستقلة بهذا الغرض، ليس فيها تخلّص إلى موضوعات القصيدة العربية، كما أنّنا لا نلفي المقدمات التّقليدية التي دأب الشعراء عليها في استفتاح قصائدهم.

5. خاتمة: وتمام القول إنّ الهجاء الذي نظمه المغاربة في سمط من الشّعر يبدو أكثر مما وصل إلينا، فابن بسّام – مثلا–قد عدل عن إثبات كثير من أهاجي المغاربة قائلا:" ولمّا صُنتُ كتابي هذا عن شَين الهجاء، وأكبرتُه أنْ يكون ميداناً للسّفهاء أجريت هاهنا طرفاً من مليح التّعريض"[33]، غير أنّ الدكتور إحسان عبّاس يرى أن المدرسة الإفريقية ترفّعت عن الهجاء، فشُعراؤها لا يحبّون صنع الهجاء إما ترفّعا عنه، أو ذهابا مع الكبْر[34].

وقد تبدّى لنا أن هجاء المدن ركّز على ذمّ العنصر الطبيعي، والعنصر الاجتماعي، والعنصر الحضاري، مصوّرا طبائع المدن وأخبارها وأحوالها المختلفة فكان بذلك وثيقة تاريخية، والأليق بشعر الهجاء، كما يقول الرافعي، أن يسمّى شعر التّاريخ؛ لأن الهَجّاء مؤرّخ يذكر مثالب الناس والمجتمعات، ويقصُّ من التّاريخ ما يستعين به على إحكام هجائه[35]. والحقّ أنّ تجربة هجاء المدينة قد تعمّقت في وجدان الشّاعر المغربيّ وأورثته أشكال النّقمة نتيجة لموقف شخصيّ أرّخ فيه للذّات في علاقتها بالمكان، ودراسة هذا اللّون من الشّعر ضرورة لتتميم حلقةِ شعرِنا المغربيّ القديم، حتى يغدو باقة تتنوع لونا وشذى.

6. قائمة المراجع:

– الأصفهاني، أبو الفرج: الأغاني. تحقيق: إحسان عباس وآخرون. دار صادر بيروت، ط.3، 2008.

- الباروني، عبد الله النفوسي: الأزهار الرياضية، في أئمة الملوك الإباضية. دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، د. ط.،1986.

- البكري، أبو عبيد: المغرب، في ذكر بلاد إفريقية والمغرب. دار الكتاب الإسلامي، د.ط.، د. ت.

- التجاني، أبو محمد عبد الله بن محمد: رحلة التجاني. الدار العربية للكتاب تونس، د. ط.،2005.

- التجيبي، أبو بحر صفوان بن إدريس المرسي: زاد المسافر، وغرة محيا الأدب السافر. تحقيق عبد القادر محداد. دار ابن خلدون، تلمسان، د. ط. 2011.

- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: البيان والتبيين. تحقيق عبد السلام محمد هارون. مكتبة الخانجي، القاهرة، ط.6، 1998.

- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط.2 1384هـ/1965م.

- الحاوي، إيليا: فن الهجاء وتطوره عند العرب. دار الثقافة، بيروت، د. ط. د.ت.

- حسين، محمد محمد: الهجاء والهجاءون في الجاهلية. دار النهضة العربية بيروت، ط.3، 1970.

- الحصري، أبو إسحاق بن علي القيرواني: زهر الآداب، وثمر الألباب. تحقيق: زكي مبارك. دار الجيل، بيروت، د. ط.، د. ت.

- ابن حمدون، محمد بن الحسن بن محمد بن علي: التذكرة الحمدونية. تحقيق إحسان عباس وبكر عباس. دار صادر، بيروت، ط.1، 1996.

- الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله: معجم البلدان. دار صادر، بيروت، د. ط.، 1397هـ/1977.

- الحميري، محمد بن عبد المنعم: الروض المعطار، في خبر الأقطار. تحقيق إحسان عباس. مكتبة لبنان، بيروت، ط.2، 1984.

- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس. دار صادر بيروت، ط.1، 1994.

- ابن دحية الكلبي، أبو الخطاب عمر بن حسن الأندلسي: المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق إبراهيم الأبياري وآخرين، دار العلم للجميع للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، د.ط.، 1374 هـ –1955م.

- الدهان، محمد سامي: الهجاء. دار المعارف، مصر، ط.3، د. ت. ص.90.

- الرّافعي، مصطفى صادق: تاريخ آداب العرب. دار الكتاب العربي، بيروت د. ط.1973.

- ابن رشيق، أبو الحسن: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده.تحقيق، محمد محيي الدين عبد الحميد. دار الجيل، بيروت، ط.5، 1981.

- ابن رشيق، حسن بن رشيق القيرواني: أنموذج الزمان، في شعراء القيروان. تحقيق: محمد العروسي المطوي وبشير البكوش. الدار التونسية للنشر تونس المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ط، 1406هـ/1986.

- ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى: المُغرب، في حلى المغرب. تحقيق شوقي ضيف. دار المعارف، مصر، ط.4، 1993.

- السقاط، عبد الجواد: مدينة فاس في الشعر المغربي.مجلة دعوة الحق، العدد 295. المملكة المغربية، رجب–شعبان 1413/ يناير–فبراير 1993

- السملالي، العباس بن إبراهيم: الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام

- المطبعة الملكية، الرباط د.ط.، 1974م.

- الشنتريني، أبو الحسن علي بن بسام: الذخيرة، في محاسن أهل الجزيرة. تحقيق إحسان عباس: الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ط1، 1395هـ/1975م.

- عباس، إحسان: العرب في صقلية. دار الثقافة، بيروت، ط.1، 1975.

- العبدري، أبو عبد الله محمد بن محمد بن سعود: رحلة العبدري. تحقيق علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط.2 2005.

- ابن القاضي، أحمد المكناسي: جِذوة الاقتباس في ذِكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس. دار المنصور، الرباط، د.ط. 1974

- المعري، أبو العلاء: اللزوميات. تحقيق: جماعة من الأخصائيين. دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط.، 2001.

- المقري، أحمد بن محمد التلمساني: نفح الطيب، من غصن الأندلس الرطيب. تحقيق إحسان عباس. دار صادر، بيروت، ط.6، 2012.

- المقّري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني: أزهار الرياض، في أخبار عياض. تحقيق: مصطفى السقا وآخرين. صندوق إحياء التراث الاسلامي الرباط د.ط.، 1978.

- النّميري، ابن الحاج: فيض العباب، وإفاضة قداح الآداب، في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزّاب. تحقيق محمد بن شقرون. دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.1 1990.

- هدارة، محمد مصطفى: اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري. دار المعارف، مصر، د. ط.،1963.

- اليوسي، الحسن: المحاضرات في الأدب واللغة. تحقيق: محمد حجي وأحمد الشرقاوي إقبال. دار الغرب الإسلامي، بيروت، د.ط 1982.

8. هوامش[†]:

(1) ينظر: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين. تحقيق عبد السلام محمد هارون. مكتبة الخانجي، القاهرة، ط.6، 1998، 352/1.

(2) ينظر: محمد مصطفى هدارة: اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري. دار المعارف، مصر، د. ط.،1963. ص.430 ، 431 .

(3) محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون: التذكرة الحمدونية. تحقيق إحسان عباس وبكر عباس. دار صادر، بيروت، ط.1، 1996. 92/5.

(4) ينظر: محمد محمد حسين: الهجاء والهجاءون في الجاهلية. دار النهضة العربية بيروت ط.3، 1970.ص.3.

(5) محمد سامي الدهان: الهجاء. دار المعارف، مصر، ط.3، د. ت. ص.90.

(6) أحمد بن محمد التلمساني المقري: نفح الطيب، من غصن الأندلس الرطيب. تحقيق إحسان عباس. دار صادر، بيروت، ط.6، 2012. 73/1.

(7) الحسن اليوسي: المحاضرات في الأدب واللغة. تحقيق محمد حجي وأحمد الشرقاوي إقبال. دار الغرب الإسلامي، بيروت، د.ط.، 1982. ص.44.

(8) أبو عبد الله محمد بن محمد بن سعود العبدري: رحلة العبدري. تحقيق: علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط.2، 2005. ص. 184، 185.

(9) ابن الحاج النّميري: فيض العباب، وإفاضة قداح الآداب، في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزّاب. تحقيق: محمد بن شقرون. دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.1، 1990. ص. 441.

(10) عبد الله النفوسي الباروني: الأزهار الرياضية، في أئمة الملوك الإباضية. دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، د. ط.،1986، ص.28. شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي: معجم البلدان. دار صادر، بيروت، د. ط.، 1397هـ/1977. 8/2

(11) أبو عبيد البكري: المغرب، في ذكر بلاد إفريقية والمغرب.دار الكتاب الإسلامي، د.ط.، د. ت. ص.63. ينظر أيضا: معجم البلدان: م. س. 49/2. والأزهار الرياضية: م. س. ص49، 50 .

(12) البكري: م. س. ص.63. والباروني: م.س. ص.47، 48.

(13) ابن القاضي، أحمد المكناسي: جِذوة الاقتباس في ذِكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس. دار المنصور، الرباط، د.ط. 1974. 413/2.

(14) أبو الحسن ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. دار الجيل، بيروت، ط.5، 1981. 270/2.

(15) ابن دحية الكلبي، أبو الخطاب عمر بن حسن الأندلسي: المطرب من أشعار أهل المغرب. تحقيق: إبراهيم الأبياري وآخرين. دار العلم للجميع للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، د.ط.، 1374 هـ – 1955 م، ص، 94.

(16) ينظر: إيليا الحاوي: فن الهجاء وتطوره عند العرب. دار الثقافة، بيروت، د. ط. د.ت.ص.583، 584.

(17) شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني المقّري: أزهار الرياض، في أخبار عياض. تحقيق: مصطفى السقا وآخرين. صندوق إحياء التراث الاسلامي، الرباط، د.ط. 1978. 2/ 365. كما ينظر نفح الطيب: م.س. 512/2. وينظر أيضا: محمد بن عبد المنعم الحميري: الروض المعطار، في خبر الأقطار. تحقيق: إحسان عباس. مكتبة لبنان بيروت، ط.2 1984. ص. 127.

(18)، أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد: المُغرب، في حلى المغرب. تحقيق: شوقي ضيف. دار المعارف، مصر، ط.4، 1993. 266/2. وللاطلاع على جملة من الأماديح التي قيلت في مدينة فاس على مر العصور ينظر: عبد الجواد السقاط: مدينة فاس في الشعر المغربي.مجلة دعوة الحق، العدد 295. المملكة المغربية، رجب–شعبان 1413/ يناير–فبراير 1993

(19) أبو محمد عبد الله بن محمد التجاني: رحلة التجاني. الدار العربية للكتاب، تونس، د. ط.،2005. ص.139.

(20) أبو بحر صفوان بن إدريس المرسي التجيبي: زاد المسافر، وغرة محيا الأدب السافر. تحقيق عبد القادر محداد. دار ابن خلدون، تلمسان، د. ط.، 2011. ص.133. والنفح: م.س.175/1.

(21) حسن بن رشيق القيرواني: أنموذج الزمان، في شعراء القيروان. تحقيق: محمد العروسي المطوي وبشير البكوش. الدار التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر د.ط.، 1406هـ/1986.ص.18.

(22) العبدري: م.س.، ص.،269.

(23) الرحلة التجانية: م.س. ص.90. والروض المعطار: م.س.، ص.366. هذا التجنيس والتلاعب اللفظي بأسماء المدن نجده كثيرا لدى المعري كقوله مثلا:

إنّ الحِجازَ عنِ الخيراتِ مُحتجَزٌ، وما تِهامَةُ إلاّ مَعدِنُ التُّهَـــم

والشامُ شؤمٌ، وليسَ اليُمنُ في يمنٍ ويَثرِبُ الآنَ تَثريبٌ على الفَهِم

ينظر: أبو العلاء المعري: اللزوميات. تحقيق: جماعة من الأخصائيين. دار الكتب العلمية بيروت، د.ط.، 2001. ص. 317.

(24) معجم البلدان: م.س.71/2.

(25) العبدري: م. س.، ص.202.، ومعجم البلدان: م.س.207/3.

(26) نفح الطيب:م. س. 278/6.

(27) أبو إسحاق بن علي الحصري القيرواني: زهر الآداب، وثمر الألباب. تحقيق: زكي مبارك. دار الجيل، بيروت، د. ط.، د. ت. 53/3.

(28) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني. تحقيق: إحسان عباس وآخرون. دار صادر، بيروت ط.3، 2008. 251/21.

(29) أنموذج الزمان: م.س.، ص.98.

(30) العباس بن إبراهيم السملالي: الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، المطبعة الملكية، الرباط د.ط.، 1974م. 60/9

(31) أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان تحقيق: إحسان عباس. دار صادر بيروت، ط.1، 1994، 137/7.

(32) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، ط.2، 1384هـ/1965، 322/3.

(33) أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني: الذخيرة، في محاسن أهل الجزيرة. تحقيق: إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ط1، 1395هـ/1975م.544/1.

(34) إحسان عباس: العرب في صقلية. دار الثقافة، بيروت، ط.1، 1975. ص.191.

(35) مصطفى صادق الرّافعي: تاريخ آداب العرب. دار الكتاب العربي، بيروت، د.ط. 1973. 83/3.